ISSN 2170-0796

البحث عن هارفارد.. جزائريّة

بقلم: عزالدين ميهوبي

يمكنك أن تطرح سؤالاً عن أفضل ثلاثة لاعبين لكرة القدم في العالم فتأتيك آراء مختلفة من القارات الستّ، فيقولون ميسي ثم رونالدو ويأتي نيمار ثالثًا، وربّما يخالفه آخرون في الرأي، فيقلبون الأسماء بحسب الذوق. ولكن لو سألت النّاس عن أفضل ثلاث جامعات في العالم، لن يأتيك من الإجابات سوى القليل، مؤسسا على ما تواتر من معلومات بشأن أكثر الجامعات شيوعًا وذيوعًا، فيقولون هارفارد وأوكسفورد وجورج تاون والسوربون، وربّما يذكرون جامعة بارتريس لومومبا التي تخرّج منها كثير من قادة البلدان الحمراء.. أي تلك التي تبنّت الشيوعيّة كما في إفريقيا وبعض البلدان العربيّة، كاليمن الجنوبي، وأمريكا اللاتينيّة. وقد يذكر آخرون جامع الأزهر أو الزيتونة والمستنصريّة من باب الاعتزاز بالتاريخ.. شهدت السنوات الأخيرة بروز تصنيفات لأكثر الجامعات تأثيراً في العالم، وفتح هذا أبواب جهنّم على الجامعة التي تتذيل ترتيب سلّم الجامعات في العالم، وربّما كانت الجامعة الجزائريّة، من بين ضحايا هذا التصنيف الذي يأخذ بمعايير تمّ تفصيلها على مقاس جامعات الغرب وأحيانًا الشّرق، لتحافظ على مرجعيّتها في العلم والمعرفة وتشكيل العقول الأكثر تأثيرا في العالم.. وإذا حدث وكنت بين المائة الأولى فأنت في جنّة المعرفة. فإلى جانب تصنيف فوربيس، وشانغهاي، والفينانشال تايمز، والتصنيف الألماني، هناك تصنيف مجلة التايمز المتخصصة في التعليم العالي الأكثر مهنيّة، كما تقول المصادر، إذ أنّها قامت باستطلاع لمعرفة المعيار الذي يستند إليه الطلبة لتحصيل العلم ونيل الشهادة، فوصلوا إلى أنّ السّمعة هي التي تتحكم في الاختيار، ثم تأتي معايير قيميّة أخرى. وتوصّلت المجلّة إلى أنّ هارفارد هي صاحبة السمعة الأكثر شيوعًا في العالم.. من الطبيعي أن تكون هارفارد الأعلى في بورصة السمعة، فقد تخرّج منها فرانكلين روزفلت وجون كيندي وباراك أوباما وهنري كيسنغر وبيل غيتس ومارك زوكربيرغ.. فالسّمعة هي التي تصنع مجد أعرق الجامعات اليوم، فلا غرابة أن نجد الترتيب، حسب التايمز، يضمّ جامعة هارفارد، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، جامعة ستانفورد، جامعة كامبريدج، جامعة أكسفورد، جامعة كاليفورنيا، بيركلي، جامعة برينستون، جامعة ييل، معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس، ولا نجد بينها جامعات فرنسيّة أو آسيويّة أو عربيّة، ولو تضمّنت مناهج تدريس أكثر مواءمة للعصر، كما هو الشأن بالنسبة للجامعات اليابانيّة والكوريّة الجنوبيّة وحتّى الصينيّة التي تتبنّى البرامج الإلكترونيّة، كونها تتجه نحو اعتماد اقتصاد المعرفة، والسيطرة على سوق المنتجات الرقميّة. والاتجاه نحو الاستخدام المفرط للتقنيات الرقميّة في عديد المجالات، من شأنه أيضًا أن يعرّض الجامعات مستقبلاً إلى الاستغناء عن الأساتذة والباحثين، إذ أنّ إحدى الدراسات في فرنسا أفادت أنّه بحدود العام 2022 تكون الجامعة الفرنسيّة فقدت نصف أساتذتها، لاعتبارات مختلفة، وهي الدراسة التي

ISSN 2170-0796

دقت بشأنها الجهات المعنيّة بالتعليم العالي والبحث العلمي أكثر من ناقوس.. كنتُ أستعين في حديثي عن الجامعة دائمًا بواقعة من اليابان، تتمثل في وضع صورة أوّل امرأة ترأس جامعة طوكيو على العملة النقديّة، تعبيرًا من الأمّة اليابانيّة للمعرفة والعلم، وعرفانًا بمن كانوا وراء نهضة بلد اعتقد أبناؤه أنّه لن يعود للحياة بعد كارثة هيروشيما، لكنّه وثق بالعلم فأصبح قوّة ضاربة في عالم اليوم، بمنافسته القوى العظمى في أسواق العالم. فأن تضع صورة امرأة بديلاً للإمبراطور، هو الشعور بأنّ المعرفة هي السيادة.. وإذا تحدّثت عن الجامعة الجزائريّة، ونحن جزء منها لأنّنا نتاجها، يمكن القول إنّ الوضع بالنسبة لها لا ينفصل عن الواقع بكل تعقيداته وتناقضاته. فالجامعة التي لم يكن بها أزيد من خمسمائة طالب غداة الاستقلال، هي اليوم تضمّ أكثر من مليون وثلاثمائة ألف طالب موزع عبر أكثر من خمسين جامعة، وعديد المدارس والمعاهد العليا، وبالتّالي فالمسألة تؤخذ من جانبين، الأول ويتعلّق بضرورة التكفّل بتكوين أكبر عدد من الخريجين في مختلف ميادين المعرفة والتخصص العلمي، وهذا يقتضي ضخّ إمكانات ماليّة كبيرة، في ظلّ سياسة اجتماعيّة مكرّسة في ثوابت الدولة الجزائريّة وديمقراطيّة التعليم ومجانيّته. والجانب الثاني هو محاول ربط الجامعة بمحيطها، وجعلها قادرة على مواكبة حركة التنميّة وتلبيّة حاجيات المجتمع من الخريجين الذين يغطّون عجزًا في قطاعات معيّنة، خاصّة وأنّ الجزأرة أخذت مداها في كلّ التخصصات. هذا فضلاً عن أنّ الجامعة هي المختبر الذي تُنتج بداخله النخبة الوطنيّة، سياسيّة واقتصاديّة وتربويّة وعسكريّة.. لكلّ هذا فإنّ الإصلاحات التي تمسّ الجامعة، تفرضها متغيّرات العالم، وتدفع إليها المناهج الأكثر نجاعة في العلم والمعرفة.. وبالرّغم من أنّ الجامعة الجزائريّة، هي على تماس مع أوروبّا التي لا يختلف اثنان في أنّها متطوّرة في مجال التعليم والبحث، إلاّ أنّ نسبة الإفادة من هذا التماس تبقى محدودة، ربّما بسبب عدم وجود سياسة في هذا المجال، تتيح إمكانيّة العمل ضمن رؤية وطنيّة شاملة تهدف لسدّ الفجوة الرقميّة والعمل على توطين المعرفة التي لم تعد حكرًا على شعب دون آخر.. زرتُ عديد الجامعات في الجزائر، آخرها جامعة بشّار، وشعرتُ أنّ هناك شعورًا بضرورة حرق المراحل لوضع الجامعة الجزائريّة في سياقها الزمني، لا أن تسير بسرعة السلحفاة.. فلا تصل إلاّ بعد يكون الوقت فات. إنّنا لا نريد أن تكون الجامعة الجزائريّة هارفارد ولا السوربون ولا حتّى باتريس لومومبا، ولكن أن يزيد اهتمامها بالمعرفة، ومواكبة التفكير الحاصل في جامعات العالم، وأن يُدرك الأساتذة والباحثون والعمداء والطلبة أنّ الأمر لا يتعلّق بإرساء تكويني روتيني ينتهي بمنح شهادة يسعى صاحبها لكسب قوته، لا التفكير فيما يمكن أن يكون قيمة مضافة في المجتمع، وهو مواصلة البحث، وسرقة المعرفة من أيّ موقع.. ولو كان موقعًا إلكترونيًا. ألا تستحقّ الكفاءات العلميّة الموهوبة التي أبانت عن جامعاتنا إنشاء فضاء شبيه بـ "سيليكون فالي"؟. هذا هو الرّهان الذي يجعلنا نسعد بجامعة تخرّجت منها قاماتٌ علميّة وفكريّة هي اليوم تصنع بهجة شركات ومخابر بحث في عديد العواصم..